آل الشاوي

La famille Shâwy.

— ٢ —

عبدالله بك الشاوي المتوفى سنة ١١٨٣ هـ ١٧٦٩ م

فخر هذه الاسرة وباني مجدها الحقيقي ورافع دعائمها هو عبدالله بك وان كان شاوي بك هو المؤسس لهذا البيت الكريم فالاسرة لا تزال تتمتع بأوقافه وتميل اليها عند الضنك والحاجة ...

تكاثرت الوثائق التاريخية والادبية في زمنه لقرب عهده منا ولذا نجد له اخباراً جمة . وان كانت مبتورة غير متصل بعضها ببعض ولقد اطرأه الادباء ، وبالغ في وصفه المؤرخون فعد من اكابر رجال « السياسة العشائرية » .

والحق يقال ان سياسة العشائر من اعوص الامور ، وقد بذل العلماء الجهود لمعرفة احوالها ، وصرف السياسيون مساعي اكثر للوقوف على طريق ادارتهم ادارة حكيمة ولا يزالون في خبط من الامر وتشوش منه ، ولعلهم الى الآن في دور التجربة . فكل خطل توحيه الاهواء يحسبونه الحكمة في حسن الادارة ولكنهم يعززونه بالقوة . فهم والعشائر على حد المثل البدوي : « هذه القنا وانت تعرف » او كما يقولون: « الحق بالسيف، والعاجز يريد شهود » فالحق عندهم للقوة .

ان هذه الاسرة دبرت امر العشائر — بالنظر الى الحكومة واجابة لرغبتها — ونهجت فيه خير نهج . واحسن تدبير حسب الظروف والاحوال التي اكتنفت الادارة حين ذاك . ومن المقرر ان خير طريقة للادارة العشائرية ما وافقت روحية القوم ، لا ما تصوره بعضهم من المثل الاعلى . فلا يريدون إلا ما الفوه ولا يرغبون إلا في ما اعتادوه .

كان عبدالله بك يعد من اكابر الرجال في هذه الادارة . ولذا وصفه صاحب عنوان المجد بقوله : « كان لشاوي بك ولد يسمى عبد الله بك وهو احنف زمانه ، كانت له الرياسة الكبرى، والصولة العظمى ، وله من الخيرات والكرم

ما لا تحصيه الاقلام » اه .

هذا كلام مجمل ينبيء عن مقدرة ويشير الى مهارة كما هو الغالب في ابناء البادية فاذا انضم الى ذلك مناصرة من الحكومة ، وطاعة من القبائل ، وكرم نفس ، واعتزاز بقبيلة ، وحلم عظيم ، فهناك الذكر الجميل ، والصيت الذائع ، والفخر الكامل . ومن ثم ابتني « بيت العز » وشيد المجد الخالد .

فعبدالله بك امير العرب المسيطر على ادارة الحكومة — في خارج المدن وفي القبائل — وهذا تابع لنفوذ الحكومة وامتداد سلطتها . وآنئذ لم يكن للحكومة جيش مرابط كما هو الامر في هذه الايام . وانما كان لها ما يشبه الادارة العشائرية العامة الواسعة النطاق . وكان للحكومة بضعة اناس من الينكجرية [الانكشارية] ومن المماليك والعثمانيين يقومون اودها ومع هذا يستخدمون سياسة الخديعة والحيلة ، وسحق البعض بالبعض شأن كل ضعيف ، بل شأن كل قوي لا يريد ان يجازف بقوته .

قام المترجم فاحرز منزلة عالية ، ونال ما نال ، واحكم امر العشائر ولسان حاله ينشد :

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل فوق ما فعلوا

ان الوقائع التاريخية والعشائرية في ذاك العصر كانت غامضة جداً . ولذا نرى صاحب « الدوحة » لم يذكر للوزير عمر باشا من الحوادث عن سنين متعددة سوى بعض الوقائع التي تداولتها الالسن ، واغفل غيرها . وقال : لم تحدث في زمنه سوى وقعة الخزاعل ، ووقعة المنتفق . واشار الى باقي السنين أنها مضت بسكون وهدوء . هذا عدا حادثة الطاعون . .

لذا لم يبق لنا امل في العثور على وقائع المترجم : التابعة لوقائع الوزير المشار اليه . ولا لمن من سبقه ... فاقتضى الرجوع الى الدواوين والمجاميع . وهذه كثيرة . وتكاد تكون قد قصرت مدوناتها على مدح المترجم ومدح اولاده والثناء عليهم ، مما يدل على علو المكانة . واليك البيان :

ممن افرد التصنيف لمدحه واطرائه مع اولاده ابو المحامد الشيخ احمد ابن ابي البركات الشيخ عبد الله السويدي المتوفى سنة ١٢١٠ هـ (١٨٠٧ م) في

ديوانه المسمى « افحام المناوي في فضائل آل الشاوي » ويقول في مقدمته ما هذا بحروفه :

« لما من الله سبحانه على الروراء ، وتفضل على من تولاها في عصرنا من الوزراء بمن نصب نفسه النفيسة لمصالح المسلمين ، المسلمين امورهم لرب العالمين ، ولقضاء الحوائج ، ودفع الجوائح ، عن المؤمنين المؤمنين ، لدعاء رب العالمين ، والزمهما اكرام الملهوف ، واطعام الضيوف ، فافنى بيوت المال ، واقنى ذوي الاقلام ، ورفع اعلام العلماء واصلح احوال العلماء ، وسار في الناس سيرة يحمدها الموالي والمخاصم، ويشكرها المحارب والمسالم ، حتى انه بلغ من الكمال غايته ومن الاجلال نهايته ، ومن المناقب اعلاها ، ومن المناصب والمراتب ارفعها واعلاها (الى ان يقول) كيف وقد سما بظاهر فضله ،ونما بظاهر أصله. فلم يترك فضلا لمفاضل ومناوي ، مولانا الاكرم عبد الله بك ابن المرحوم شاوي. الخ .. » انتهى .

وفيها اشارة الى أن هناك من ينكر فضله ويتدد به ، وكنا نود الاطلاع على ذلك لمعرفة حقيقة الرجل وعظمته . وقد بدأ الديوان بقصيدة طويلة يثني بها على المترجم بمناسبة رجوعه من اسفاره العديدة لاصلاح احوال البصرة وفيها يبين التنكيل بسلمان ، والظاهر انه شيخ كعب وهو سلمان العثمان ، وكان قد ساق عليه جمعاً الوزير علي باشا في اوائل وزارته سنة (١١٧٥ هـ ١٧٦١ م)فسأله وطلب العفو منه فعفا عنه .

ولا نرى في صدرنا حاجة الى ايراد هذه القصيدة بحذافيرها ولكننا اخترنا منها بعض الابيات وهي :

ما للزمان يود قرب فنائي فاشن غارة جيشه بفنائي
أوما دراني انني متحصن من كل حادثة وكل بلاء
بالشهم عبدالله ذي الفضل الذي ما ناله احد من الامراء

ومنها : (يشير الى وقعة مع سلمان)

ولقد طغى سلمان ثاني عطفه يمشو الفساد بساحة الفيحاء
فلما رأيته واهمز خيله فغدا مثالا لجوف الاحشاء

معتل قلب غير سلمان من الاعلال والتعريف والاسواء

ومنها : (يعدد اوصافه)

هو قطب دائرة الكمال ومركز التقوى وقوس الدولة العلياء
ذو محتد ما الشمس عند ضيائه إلّا كحالك ليلة ليلاء
من آل حمير من سلالة تبع من آل عمرو صنو ماء سماء
آل العبيد به سموا وكذلك الابناء قد تربو على الآباء
يرمي الغيوب بفكرة وقادة فتلوح اوجهها له بصفاء
ومدبر صعب الخطوب كانما يدري صباحاً حادثات مساء ...

ومختار هذه القصيدة يذكر له اوصافاً تعبر عن مقدرة وذكاء وشجاعة وكرم ، وقد تركنا الكثير منها ، وفيها جمع ناظمها مصطلحات العلوم من صرف ونحو وكلام وفقه وحكمة بطريق المدح ثم اثنى على اولاده وعددهم

وله قصيدة اخرى في هذا الديوان يهنئه فيها بعيد النحر قال :

شهم كأن السحاب الجون راحته لكنها هطلت بالبيض والصفر

الى ان يقول :

تبارك الله ما هذا الفتى بشراً لكنه ملك في صورة البشر
لقد سمعنا ندى معن بن زائدة لكنه قيل ليس العين كالخبر
تورث الفضل من آبائه فغدا يسير في نهج التقوى على اثر
يدبر الخطب والافكار قاصرة فيرجع الخطب خيراً غير ذي خطر

هذا والديوان كله من نظمه .

وللشيخ عبدالرحمن افندي السويدي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ (١٧٨٦ م) مطلعها :

الله اكبر زاد فيك يقيني بك اسأل المولى الكريم يقيني

ويقول في آخرها :

لازلت محروس الجناب موفقاً في حفظ دنيانا وحفظ الدين

وللسيد محمد (ولم اتمكن من معرفة هذا الرجل) قصيدة في مدحه يقول فيها :

سلكت من العلى نهجاً سوياً فما لسواك من نهج سوي...

ومنها : نشرت لواء فضل دان كل لديه من دني او قصي

احاديث الندى بطويت اطي وانت نشرتها من بعد طي

الى ان يقول :

تغشانا من الاهوال ليـل فكنت عليه كالصبح السني
فدم واهناً بطيب العيش ماقد حباك الله « بالصدر العلي »
وعش بهجاً على رغم الاعادي تتيه بثوب مفخرك البهي

ومن احسن ما مدح به قصيدة لحسين افندي العشاري المتوفى في حدود سنة ١٢٠٠ محتوية على اوصاف لم لم تتضح في شعر غيره ، قال :

عليك ابا الغر الكرام سـلام فانت لكل الخائفين سـلام
الم ترهم عن مدح غيرك امسكوا كما انهم عن زاد غيرك صاموا
فانت لهم غيث اذا شح غيثهم وانت اذا زال الغمام غمام
وانت لهم هاد اذا ضلت النهى ولولاك في وادي الضلال لهاموا
بك انتظم الملك الرفيع وحكمه ولولاك لم يظهر عليـه نظام
تنور من آرائك البيض خطبه كأنك نور والخطوب ظلام
وان جمح الامر الخطير رددته لانك للامر الخطير لجام
فكل امام انت غيبة سره وانت له في الحادثات ترام
سبقت الاولى فازوا بكل كريمة فانت لكل السـابقين امام
عليك الورى أثنت وعن غيرك اثنت فان شذ فرد ما عليه ملام
تزاحم اقوام لادراك شأوكم فقصر عنه غارب وسنام ...
ابوك الذي قد زين البيت حيره وعمك كهلان وجدك سام ...
واولادك البيض البهـاليل فتية كرام فمنهم سادة وكرام
فهم تحفة المحتاج لله درهم ومنهاجهم لا يعتريه ظلام ...
فلا البصرة الفيحاء لولاك بصرة ولولاك ما دار السلام سلام
قدمت فيا فخر الورى خير مقدم بك الحيف يجلى والكتاب يقام

الى ان يقول :

فلاخلت الزوراء منك مدى المدى فسـكانها في بحر جودك عاموا
ولا برحت اقمار مجـدك ترتقي الى فلك الافلاك وهي تسـام

وفيها اشارة الى ذهابه الى البصرة في سنة ١١٨١ ، كما يستفاد من قصيدة للسيد درويش الرفاعي البصري كان مدحه بها بمناسبة قدومه مرحباً به وتاريخها في السنة المذكورة ، وهو احد نقباء البصرة على ما يظهر .

ومدحه شعراء آخرون مثل خليل بكتاش والشيخ احمد النحوي . وقدجمع حسين افندي العشاري مجموعة في فضائل آل الشاوي واختار ماقيل فيهم من شعر شعراء كثيرين واكثر من مدحه الشيخ عبد الرحمن افندي السويدي والشيخ احمد السويدي ولكن فحل الشعراء الشيخ كاظم الازري فانه حاز قصب السبق على غيره ومدحه بقصائد رنانة ابدع فيها واجاد الوصف ، وبين شمائل المترجم ، فهو في الحقيقة متنبي هذا البيت وقد قصر عنه معاصروه من الشعراء بمراحل شاسعة .

ولم نتمكن من بيان وقائع المترجم اليومية وحوادثه العظمى التي سببت انقياد الرأي العام له وتهافت الشعراء عليه لقلة المصادر إلّا ان نظرة سريعة الى هذه الاشعار المقولة فيه تنبىء عن كفاية احدثت دوياً .

ولا ينكر على المترجم ان كان له مواهب سليمة فخبر البادية ، وعرف الحضارة ، فسيطر على الوجهتين وتمكن من ادارة شؤون الاثنتين ، فحصل على شهرة فائقة بما ابداه من مزايا فطرية مقرونة بالعلم والشجاعة والقوة . ولا يضيره سكوت الترك عن حوادثه ، اذ لم يرووا عنه شيئاً مفصلا ولا بينوا عن اعماله ولا عن اعمال ابيه ما يذكر في حين اننا نراهم قصروا في تاريخ وزرائهم وتاريخ ادارتهم في العراق .

ولولا شدة الوقائع وتوترها بين الحكومة وبينه وبين ابنه سليمان بك ، لما عرفنا ما يستحق الذكر ، ولكن هذه الاشعار تشير الى منزلة وتدل على ماوراءها فكأن الشعراء قصروا نظمهم على مدح هذا البيت .

واني أكتفي — خوف الاطالة — بايراد مطالع القصائد التي نظمها الازري في عبدالله بك مع بعض الابيات مما يعد من قبيل بيت القصيد واذكر موطنها من الديوان المطبوع في بومبي سنة ١٣٢٠ هـ قال من قصيدة ذكرت في ص ٢٩ من ديوانه ومطلعها :

هي الهجائن والقب السراحيب فاطلب بها المجد ان المجد مطلوب...
واعلم الناس بالعلياء مطلبه من حنكته بها منه التجاريب
وان تكن جاهلا في نهج مطلبها فذاك نهج بعبدالله ملحوب...
فقل لمن بالعلى امسى يطاوله لا تستوي الاكم والشم الاخاشيب
فليهنه من سماء المجد منزلة لها على النسر تأييد وتطييب
فساق من ماردين الماردين وقد ولى رجوماً عليها ساقها الحوب
وحلها بعد ما عاد الخلاف بها واليوم يسرح فيها الشاة والذيب

يشير الى وقعة حدثت في ماردين . وكنت اظن لاول وهلة انها وقعة ماردين المشهورة مع سليمان بك وان الناظم ذكرها بحقه إلّا اني رأيت اسمه مذكوراً فيها . والظاهر انها عشائرية او انها تتعلق بالحكومة ولكن صاحب الدوحة اغفلها فلم يعلم عنها شيئاً . ولهذا لا نعرف عن هذه الوقعة تفصيلات مهمة . ولعلها حدثت قبل زمن عمر باشا الوزير وعلى كل لم نر اشارة اليها .

وله قصيدة اخرى ذكرت في الصحيفة ١٤٦ من ديوانه وفيها يشير الى مقارعة وقد انطوت على حكم وآداب جمة . ومطلعها :

حي المدام مدام بيض كالانصل فلكم سكرت بريقهن السلسل ..
نعم المطية للفتى ظهر العلى واذا امتطته اساقل فترجل ...
بالمرهفات انال ادراك المنى وعلى ابي الهيجاء كل معولي

ثم اطنب في مدحه وانتصاراته على اعدائه وذكر اولاده وكرامة نسبه الخ وشعره في هذه الاسرة من اطيب الشعر .

وصفوة القول انه عمر طويلا وهذا ما يظهر من الاشارة التي ذكرها صاحب الحديقة في سنة ١١٥٢ هـ ومن الوقفية المؤرخة في ١٥ جمادى الاولى سنة ١١٧٢ مع تعديلاتها المؤرخات في ٢ شعبان ١١٧٣ و١٥ منه و٢٤ ربيع الثاني سنة ١١٧٧ الصادرة في زمن القاضي محمد امين افندي ابن ابراهيم ونائبه مصطفى افندي ، ومن تاريخ وفاته التي وقعت في سنة ١١٨٣ هـ وبقي في امارة العشائر وادارتهم من زمن الوالي احمد باشا ومن تلاه من الوزراء الى اواسط ايام عمر باشا .

وقد رثاه الشعراء بقصائد عديدة ومن جملتهم الازري فانه رثاه بقصيدتين

ذكرتا في ديوانه في الص ٧٨ و٩٣ ومطلع احداهما :

لعمري خلت تلك الديار ولم تزل مطالع سعد او مطارح جود

وارخ وفاته بقوله :

ولما نزلت الخلد قلت مؤرخاً مقامك عبدالله دار خلود ١١٨٨

والصحيح ان المترجم ذهب الى البصرة سنة ١١٨١ ثم عاد وبقي اثرها اي في سنة ١١٨٢ حدثت وقعة المنتفق فقتله الوزير عمر باشا سنة ١١٨٣ وذلك موافق لما جاء في الدوحة التي تذكر انها وقعت سنة ١١٨٢ والظاهر ان التأهبات للسفر جرت في هذا التاريخ ، وموافق ايضاً لما جاء في مجموعة الشاعر الاديب عمر فندي رمضان (١) الذي ذكر انه توفي سنة ١١٨٣

وفي هذه القصيدة للازري غرر الابيات اذ يصف فيها حالة القبيلة — قبيلة المترجم — ويستنهضها بتحريض ... وهكذا .

واما القصيدة الاخرى فانها لا تقل اهمية عن سابقتها . اما القصيدة المذكورة في الص ١٨٦ من الديوان فانها لا تخص المترجم وان كان الناشر ذكرها سهواً بعنوان رثاء المرحوم عبدالله بك الشاوي .

اسباب قتل المترجم

وقبل انهاء الكلام اود بيان اسباب قتله فاقول :

ان الوزير عمر باشا كان قد وزر في اواسط عام ١١٧٧ هـ . وفي السنة التالية ، قام بحرب الخزاعل ورئيسهم آنئذ الشيخ حمد الحمود ، فانتصر عليه وبذلك أمن غوائل اخر ، وهذه طريقة يتوسل بها الوزراء حينما يتسنمون كراسي الحكم بقصد التأثير على العشائر الاخر . وفي تلك الاثناء وقعت نفرة بين متسلم البصرة وهو سليمان اغا وبين الشيخ عبدالله بن محمد المانع زعيم المنتفق فارسل الوزير عمر باشا عبدالله بك الشاوي لينصحه فيعدل عن خطته ، وقد مرت الاشارة الى ذلك — فوصل البصرة سنة ١١٨١ هـ وجمع الخصمين في قصبة الزبير « رض » فابدى الشيخ انتصاحه وبهذه الصورة وفق بينهما فرجع وقد مرت

١) هذه المجموعة من خير المجاميع التي صبرت على الايام فانها اشتملت على بيان وقائع تاريخية لهذا القرن وللقرن التالي الى حدوث الوباء ...

القصائد المقولة عند رجوعه . إلّا ان متسلم البصرة ـ كما وصفه صاحب الدوحة ـ كان سريع الغضب ونعت الشيخ عبدالله بانه كان معانداً ، صلباً (واعتقد ان هذا مبالغة لانه تقرب للصلح) ولذا لم تدم الالفة بينهما . وهذا ما دعا الوزير الى ان يقوم بحرب المنتفق .

فجهز جيشاً وذهب بنفسه حتى وصل الى محل يسمى : (ام الحنطة) من أراضي العرجاء. وحينئذ رأى الشيخ عبدالله المنتفقي ان لا قدرة له في المقاومة فضرب في البادية .

اما الوزير فانه كان يخشى نفوذ عبد الله بك واتساع شهرته اذ رأى الشعراء يلهجون به ، وتحقق تزايد نفوذه وقوة امره حتى ظهرت له الحالة جلية ... ولكنه لم يجد طريقاً الى الوقيعة به حذراً من حدوث مالا تحمد عقباه . واولاده عصبة قوية فكتم ذلك . ثم اتخذ الموافقة على الصلح ونكث حبله من قبل شيخ المنتفق . وما ابلغه اعداء عبد الله بك الشاوي عنه ـ وهم كثيرون والوزير اكبرهم خطراً واشدهم نكاية ـ وسيلة الى تحقيق امنيته . فأبدى ان قد تم امر بين الشاوي وبين الشيخ عبدالله فدبراه ليدلا على الحكومة للقيام عليها . وان عبدالله بك هو الذي اوعز الى الشيخ عبد الله المنتفقي بالفرار من وجه الوزير .

وجد الوزير كل ذلك من المبررات واظهر القسم الاخير من مدعاه كل الاظهار واعتبر ان هناك خيانة ولا بد من معاقبة الخائن فاعتمد على جيشه ليحافظ على مكانته ، ونفوذ حكومته .

ولما رأى ان شيخ المنتفق لم يستطع مقارعته قبض على عبد الله بك الشاوي فقتله في « أم الحنطة » . . وقد ذكر صاحب الدوحة هذه الواقعة في حوادث سنة ١١٨٢ وهي ـ على مايظهر لنا سنة التعيثة أو ان الخبر ورد لم إلّا في سنة ١١٨٣ .

ولا ينكر من صاحب الدوحة ان ينسب الخيانة الى عبد الله بك الشاوي تبريراً لعمل الوزير . ومراعاة لسياسة الحكومة ، وجرياً على خطتها ، وهو امر معهود في مؤرخي الحكومة آنئذ ، اذ لم يروا ادارة حازمة سوى ادارتها .

وهذا مما يجب ان لايغفل التنبيه عليه .

وفي هذه الاثناء ورد الى بغداد خبر قتل الموما اليه ، فنهض من اولاده الحاج سليمان بك ، وسلطان بك . وجميع ابناء عشيرة العبيد وقاموا في وجه الحكومة اخذاً بالثار واحتشدوا في دجيل ورتبوا وسائل الاضطراب والاختلال. قال صاحب الدوحة : انهم قطعوا السوابل . وسلكوا طريق النهب ، وازعجوا راحة العباد .

وحينئذ سارع الوزير الى العودة الى بغداد فقطع مسافة عشرين مرحلة في سبع او ثمان للخطر الذي واجهه من جراء هذه الحادثة ، فوصل بغداد على حين غرة ونزل « المنطقة » في جانب الكرخ ، وفاجأ المتجمهرين ففرقهم واخذ قائلتهم ، ولكن سليمان بك تمكن من الهرب والنجاة . اما سلطان بك فقبض عليه وجيء به الى الوزير فهجم عليه وسل خنجره فضربه به ، ومن ثم قتل .

هذا ولا يعول على ماقصه صاحب غاية المرام عن حوادث هذه السنة اي سنة ١١٨٣ فقد ذهب الى ان عرب كعب والخزاعل عصوا على الحكومة فحاربهما عمر باشا ، ولما عاد منصوراً ظهرت له خيانة من عبد الله بك الشاوي فقتله وقتل ولده سلطان بك . وأقام مكان عبد الله بك ولده الحاج سليمان بك الخ .. فهذا غير صحيح وان كانت السنة صحيحة فالواقعة مغلوط فيها لبعد الركاتب عن بغداد ، واما اقامة ابنه سليمان بك مقامه فهذا غير مستبعد ولكن الظاهر ان ذلك تم بعد هذه الواقعة بسنين ،وبعد انتهاء امدها والعفو عمن غضب عليهم .

قلنا . ومن معاصري عبد الله بك : الشعراء الذين اشرت الى اسمائهم في صدر هذا المقال وهؤلاء الآتية اسماؤهم ممن كانوا شهود الوقفية :

١ــ الحاج محمد ابن الحاج عمر الراوي ــ ٢ ــ والملا علي بن حسين الشواف ٣ ــ والسيد يونس الآلوسي ــ ٤ ــ وعبوس العبد القادر الشاوي ــ ٥ ــ والملا احمد بن تمر الجبوري ــ ٦ ــ ومحمد سعيد افندي السويدي ــ ٧ ــ وعبدالرحمن افندي السويدي ــ ٨ ــ وعبد الله افندي السويدي ــ ٩ ــ ومصطفى ابن الحاج محمد خليل . وغيرهم كثيرون . وقد ترك المترجم اولاداً نرجئ الكلام عليهم الى مقال آخر . والله الموفق .

المحامي : عباس العزاوي